يوحنا ٤، ٥-٤٢

٢ الأحد الرابع من يوحنا (السامرية)

العبادة بالروح والحقّ

"الله روح. والذين يسجدون له فبالروح والحقّ ينبغي أن يسجدوا له"

يلتقي الربّ يسوع، وبالأحرى يقصد، السامريّة عند بئر يعقوب. يبدو هنا هو كيهوديّ وهي كسامريّة. فيدور بينهما حوار حول الخلاف التاريخيّ بين اليهود والسامريّين. أين تتمّ العبادة: في الهيكل أم في "هذا الجبل" (جَرِزيم) الذي كان السامريّون يعتبرونه مكان العبادة عوض الهيكل؟ لأنهم يؤمنون أن إبراهيم قدّم فيه محرقته (تك ٢٢، ٢)، وفيه التقى مع ملكيصادق، وفيه أقام يعقوب مذبحاً (تك ٢٣، ٢)، وفيه تمّت أوّل تقدمة عبرانيّة على الأرض المقدّسة. فهو بالنسبة لهم جبلُ البركات. وإذا بيسوع يكشف عن منعطف مهمّ جداً وجديد في تاريخ العبادة. فيقود السامريّة إلى السؤال عن الـ "كيف" وليس عن الـ "أين" في العبادة.

العبادة الطقسيّة كانت منذ كان الإنسان بعد السقوط. يعلّمنا الكتاب أن شركة الإنسان مع الله في الفردوس وتناوله من شجرة الحياة (شركته مع الله) كانت ممارسة بسيطة ودون أيّة عبادات. فاللقاء كان وجهاً لوجه ومباشرةً. وهذه الحالة عينها يكرّرها سفر الرؤيا الذي يحدثنا عن أورشليم الجديدة، التي لا توجد فيها عبادات خارجيّة ولا هيكل، بل الربّ ذاته هو نورها وهيكلها... واللقاء معه مباشر. ولكن من لحظة السقوط ظهرت الذبائح التوسليّة والاستغفاريّة، وبنى الآباء مذابحَ للربّ. ثم ترتّبت الطقوس والأعياد لذلك. وتشكّلت هذه الظواهر في العبادة، أي الطقوس، في كلّ الأديان.

للعبادة دوافع طبيعيّة في النفس البشريّة تقوم على أساسَين: وهما شعور الإنسان بضعفه الطبيعيّ والأخلاقيّ. فمعاينة الإنسان من جهة لأمراضه وحاجاته وأتعابه تدفعه إلى الالتجاء للخالق سيد الكون طالباً منه العون والطعام و"الأوقات والأزمنة الموافقة" والصحّة والشفاء... ومن جهة ثانية فإنّ "الخطيئة" كضعف أخلاقيّ تكسر الإنسان أمام الخالق الذي وهبه هذه الدنيا بجمالها وغناها؛ إن مقابلة الإنسان

لذاته في واقعها التَعِبِ مع الواقع الذي يريده لها تدفعه إلى التوبة والخشوع والسجود أمام الربّ بانكسار وتوسّل. ولذلك ظهرت ألوان العبادة المتعدّدة عند كلّ الشعوب.

وأخذ اليهود في العهد القديم من تلك الألوان أهمّها، ولكن أعطوها مضمونها الجديد الكتـابيّ. حيث تمركزت العبادة "ليهوه"، الذي تتمثّل حضرته في تابوت العهد ومن ثمّ في الهيكل بعد بنائه ووضع التابوت فيه.

لكن وإن كانت العبادة أكثر الأمور أهمّية في حياة الإنسان، لأنها تكوّن شكل العلاقة بينه وبـين الله؛ فإنها أيضاً أكثر الأمور حساسيّة وقابليّة للفساد. هكذا بسهولة يقلب أحياناً الرياء البشريّ العبادةَ إلى طقوسٍ فارغة أو إلى إنهاء حسابات مع الله في محاولة لكسب رضاه بسعر رخيص؛ قد يبلـغ ثمـن ذبيحة أو أصوام واستغفارات محددة فقط.

لذلك نرى أن تطوّر العبادة في العهد القديم سقط مرّات عديدة في "الشكلية"، حيـث طغـى الحرف والناموس وكثرت الشرائع. و لم يفتأ الأنبياء زمناً طويلاً يوبّخون الشعب وينبّهونه ويدعونه إلى العبادة بالحقّ وليس بالظاهر. فيُظهرون الربّ قد مقت الذبائح و لم يقبل البخور ولا المحرقـات، لكنّـه يطلب الطاعة والسيرة الحسنة في الحياة.

ولما جاء يسوع اصطدم مع الناموس والحرف. وهذا الصدام قاده إلى الصليب. هناك حـوارات طويلة وعديدة يسجّلها الإنجيليّون وتبدو عنيفة جداً. ولقد دارت كلّها بينه وبين المعلّمين والفريسـيّين حول العبادة الحقيقيّة، ووجّه يسوع فيها الكثير من التحذيرات القاسية "الويـل لكـم أيّهـا الكتبـة والفريسيّون..."، لقد وضعتم الكثير الكثير من الطقوس والشرائع وقتلتم غاية الشريعة؛ "المحبّة".

وهنا مع السامريّة، تُثار هذه المسألة من جديد. "أين نعبد" أَفي الهيكل أم في هذا الجبل؟ فيجيـب يسوع: لا هنا ولا هناك، الله روح غير محدود في مكان. لذلك علينا أن نسأل ما هو أهـمّ وأعمـق: "كيف نعبد الله"؟

وعلى هذا السؤال العميق، الذي يجب أن يطرحه كلّ إنسان على ذاته في كلّ زمن وكل مكان؛ يجيب يسوع موضحاً الشرطَين الأساسيّين للعبادة الحقيقيّة. وهما "الحقيقة والـــروح". الله (الآب) روح ولذلك على الساجدين له أن يسجدوا بالروح (القدس) وبالحقيقة (الابن). يقول القدّيس غريغوريوس بالاماس: إنّ الله الآب هو "المتكلِّم" والابن هو "الكلمة" والروح القدس هو النفخة في الخليقـــة. أمّـــا سمعان اللاهوتي الحديث فيقول إن الآب هو "المنـــزل" والابن بمثابة "الباب" والروح "المفتاح".

لذلك، العنصران اللذان يكوّنان عبادتنا الحقيقيّة هما أولاً، أن تتمّ العبادة بالحقيقة، أي بيســـوع المسيح. عندما سأل أندراوس يسوع طالباً منه: "أرنا الآبَ وحسبنا"، عندها أجاب يسوع: "من رآني فقد رأى الآب". فنحن نقدم عبادتنا للآب دائماً بشخص يسوع المسيح، لأنّنا بيسوع عرفنـــا الآب، وبيسوع نذهب إلى الآب. ليس عبثاً نلاحظ في صلواتنا دائماً اسم يسوع وتوجهنا فيها غالبـــاً إليـــه. فنحن ننطلق في إيماننا من الإنجيل ومطالعته والإيمان بيسوع المسيح. يسوع الذي أخبرنا أنّ الآب يحبّنـــا وأنّه هو يقودنا إليه، وأنه جاء لتكون لنا حياة باسمه. وهذه هي الحياة "أن يعرفوك (أيها الآب) ويعرفوا أنّ يسوع هو مَنْ أرسلتَه"؛ يقول السيّد في صلاته الوداعيّة. العبادة "بالروح والحقّ" تعـــني إذن أوّلاً أن تتمحور هذه العبادة حول "الحقّ" أي الربّ يسوع. وهذا يعني أن يحتلّ بعد كلّ ممارسة مكاناً جديـــداً إضافياً، ولو صغيراً، عمّا كانت مكانته قبل ذلك. من هنا نفهم كيف عبّر بولس عن عبادتـــه لـــلآب صارخاً: "لستُ أنا بعدُ أحيا، بل المسيح يحيا فيّ". ولن تكون عبادتنا كاملة للآب حتّى يصير "المســـيح هو الكلّ في الكلّ".

والعنصر الثاني للعبادة الحقيقيّة، هو الروح القدس. فكما يقول بولس الرسول "لا أحـــد يقـــول بيسوع ربّاً إلا بالروح القدس" (١ كور ١٢، ٣). وهذه العبادة بالروح لا تعني مطلقاً عـــدم وجـــود طقوس وإنّما تعني أنّ كلّ الطقوس لا تشكّل عبادة إذا غاب عنها الروح القدس. وإن شرط حضـــور الروح القدس في العبادة، أي أن يحرّكنا الروح القدس للعبادة، هو اقتران الحياة بالإيمان، وتطابق الأقوال مع الأفعال. أي الذهاب بالعبادة إلى غايتها وليس الوقوف عند شعاراتها وترداد مبادئها فقط. لأنّه كما يقول القدّيس مكسيموس المعترف: "كما لا يمكنك أن تستدفئ بتذكّرك النار أو بالنظر إليها من بعيد، كذلك إنك لا تخلص بمجرّد بأنّ تؤمن دون أن تقوم بأعمال المحبّة لذلك الإيمان". فإن كانت العبـــادة تعني التصالح مع الله وتسبيحه والتعبير عن محبتنا له، فإن العبادة الظاهريّة تعني التكلّم عن ذلك وممارسة

الطقوس فقط، بينما العبادة الحقيقيّة بالروح تعني تحقيق هذه المصالحة وعيش هذه المحبّة، الأمــر الــذي تشكل الطقوس أداته وليس حُكماً تحقيقه. "العبادة" عدوّ للــ "العادة". العبادة تعني مسيرة والعادة تعني التكرار، تلك تعني التقدّم وهذه تعني فقط المراوحة في نفس المكان.

العبادة بالروح والحقّ، تعني إذن تقدم الحياة، أي تقديمها قرباناً للربّ. فمن يعبد ربّنا يتبدّل. يخلع الإنسان العتيق ويلبس الجديد. ليست المسيحيّة رفع ذبائح بل رفع القلب. ليست المسيحيّة تقديم ذبائح لتطبيق مصالحة بمعنى شروط هدنة بيننا وبين الله بعد أن كنّا قد عاديناه بحياتنا. المسيحيّة على العكــس تعني رفع الحواجز، واختراق الحدود من أرض العبودية إلى أرض الحياة حيث مسلكيّة الحياة مختلفــة. المصالحة مع الله، بالعمق وليس بالحرف، هي تبديل حياتنا ومواقفنا وغاياتنا.

هذان هما مقياسا مصداقية عبادتنا، وعلينا أن نفحص بهما كلّ لحظة إيماننا وعباداتنــا. المقيــاس الأوّل هو ازدياد حبّنا ليسوع وتمحور حياتنا حوله ودخوله إلى حياتنا، والثاني هو تبدّل طبيعتنا بفعــل الروح القدس، ليس الطبيعة البشريّة ولكن الأخلاقيّة.

الله الآب روح والسجود له يتمّ بمحورة حياتنا حول يسوع الحقّ، وبعبادته بالروح القدس الذي يبدّل حياتنا ويقدّمها مع يسوع إلى الآب.

آميــــــن